مقابلة أدبية مع :

الشاعر السوفياتي
افتوشنكو

بقلم عايدة مطرجي ادريس

ليس من اليسير ، وانت في الاتحاد السوفياتي ، ان تلتقي بشاعرها الشاب افتوشنكو ، بل ان الاجتماع به يبدو مستحيلا . ولكننا بعد محالات عديدة ، باء معظمها بالفشل ، استطعنا ان نلتقي به في احد فنادق باكو ، عاصمة جمهورية اذربيجان حيث كان يعقد مؤتمر للكتاب السوفيات دعي اليه عدد من كتاب آسيا وافريقيا . وهذا اللقاء الذي سجلناه ، لم يكن حديثا صحفيا ، بل كان تداولا بين « اصدقاء » كما ذكر افتوشنكو عندما لاحظ انني أسجل ما يقول . فهو يخشى « الاحاديث الادبية » ، ويعتقد انها كثيرا ما شوهت اقواله ، وخاصة حين يأخذها الصحفي الغربي ، الذي يستغل تصريحاته ، ويسيء فهمها وتفسيرها ، ويوقعه في مأزق ما زال القراء في العالم يذكرون تفاصيلها بعد ان اصدر كتاب مذكراته في باريس منذ سنوات ، واعتبر الغرب ان تلك المذكرات كانت موجهة ضد الاتحاد السوفياتي ، فاضطره ذلك الى مضايقات وتراجعات وتفسيرات .

ولم يكن الفشل بلقائه ليثبط همتنا ، خصوصا بعد ان شاهدنا هذا الاندفاع الصاعق الذي يكنه الشباب له . ففي احدى الامسيات التي نظمها اتحاد ادباء اذربيجان للشعراء السوفيات ، القى عدد كبير من الشعراء قصائد ، كل واحد قصيدة . وكان افتوشنكو ، قبل الاخير بواحد . وعندما ظهر ، اخذت القاعة تدوي بالتصفيق لفترة كانت كافية لان يلقي فيها شاعر آخر قصيدة اخرى . وحين تكلم افتوشنكو ، ساد القاعة فجأة جو من السكون والصمت . وقد قال : « لقد سمعتم اشياء كثيرة عن الفيتنام ، وعن الحرب ، وعن الدمار . وانتم منعبون ، فاليكم قصيدة الحب هذه » . واخذ يلقي قصيدته ، وكان يعيشها بانفعال شديد ، وتساهم نظراته ويداه وتحولات جسمه ومواقفه في التعبير الحسي عنها . ولم يكن من الممكن أن افهم معانيها ، ولا ان تترجم لي ، ولكنني استطعت ، من مشاهدة وجهه المحتقن تارة وقبضته التي تضرب الطاولة ، وصوته المزمجر او نظراته الهادئة ، الحالمة ، وصوته الضعيف الحنون ، وتقلبات يده المترجرجة المرنحة ، ووجهه الحزين ، ان اعيش جو القصيدة ، واشارك الجمهور انفعاله ...

وحين انتهى من قصيدته ، علا التصفيق والحماس ثانية ، ولم يكف الجمهور ، فهو يطلب منه المزيد : وكان افتوشنكو ما يزال على المنصة ، فارتفع صوته يقول : « ليست هذه الامسية مخصصة لي ، ويجب ان أنقيد بالنظام ، ولا يحق للشاعر هنا ان يلقي أكثر من قصيدة ، وانني احترم ذلك ، ولسوف التقي بكم في امسية اخرى ، هنا ، اخصص ريعها لمساعدة الفيتنام » . وعاد ليجلس مكانه . ولكن الجمهور ظل يصفق ، بلا تردد ، وبحماس متزايد . وعندها وقف رئيس الجلسة ، ودعا من جديد افتوشنكو قائلا له : « سوف نخرق القاعدة ، فانت ترى ان رغبة الجمهور لا تقاوم ، ولا يسعنا الا ان نلبي تلك الرغبة » وعاد صوت افتوشنكو ينساب وسط الصمت العميق ، فكأن القاعة لا تضيق بالمئات.

وعندما انتهت الحفلة ، كان المئات من الشباب يلاحقونه ، يطلبون منه ردا على تحية ، أو توقيعا على اوتوغراف ، او مجرد ابتسامة . وكان هو بوجهه الطفولي ، وابتسامته التي تحار في تفسيرها ،يختفي فجأة ، بين الالوف من البشر .

وفي الفندق الذي جمعنا ، حدثناه باننا قدمنا من لبنان ، من البلاد العربية ، وان العرب يعرفونه ويتتبعون انتاجه الشعري واننا قرأنا

مذكراته ، ونرغب في التحدث معه لاعطاء فكرة واضحة عن شخصيته « المشوهة » ، التي اخذناها عبر وسيط من الصحف غير الروسية ، فسألناه : (وكانت المستشرقة المعروفة لينا ستبانوفا تقوم بالترجمة) .

ـ من من الشعراء الغربيين تحب ؟

فقال : لا يوجد في فرنسا شاعر سوى سان جون برس ..

وسألناه عن رأيه في اراغون تمهيدا لجعله يتحدث عن نفسه فقال :

ـ اراغون لم يعد اليوم شاعرا . لقد انتهى فنيا وجماليا . ان الرونق الذي كان يتمتع به في شبابه قد بهت .

ـ هل تؤمن بالشعر الملتزم ؟

ـ لا بد للشعر من ان يحمل سلاح الكفاح . ولكن لا ينبغي ان يستمر طويلا في حمل هذا السلاح ، لان يد الشاعر تتعود عليه وتصبح متشنجة ، وهذا الخطر لا يقل عن خطر من يحمل الازميل دائما ، انه ينحت ، لكن الفرق واضح بين تمثال جامد وتمثال حي . والشاعر، كذلك، يجب ان يجمع بين يد حامل السلاح ويد الصانع ، والا اصبح الشعر

من اليمين : عايدة مطرجي ادريس ، الشاعر افتوشنكو ، الزميلة اميلي نصر الله

شعارا او دعاية ، كما نلاحظ ذلك عند اراغون . فهو قد استعمل في شعره الكثير من التعابير والكلمات التي استعملها في نثره ، فاذا بتلك الكلمات تفقد ذلك « الزغب السحري » الذي تحمله الفراشات . ان الشعر موهبة .

ـ وانت ، هل لديك موهبة؟

وغرق في الضحك ، واجاب : يمكن ان يكون لدي شيء من الموهبة التي اعطاني اياها الرب (او الشيطان) ولكن المهم في رسالتي كشاعر ان اعبر عن الاشياء التي لا يستطيع ان يعبر عنها سائر الناس ، وبطريقة لا يمكن ان يعبروا عنها كما اعبر انا .

ـ ولكن هل تعتبر نفسك قد نجحت ؟

ـ لا استطيع ان أعتبر نفسي ناجحا (وكانت لهجة كلامه وابتسامته تدل على عدم ايمانه بهذا الكلام) ولكن الشاعر يحاول ، وانا احاول .

ـ بالنسبة لطبيعة الشعر ، هل تعتقد ان هناك لحظات من الالهام تنتابك ، ام هو جهد تبذله ؟

ـ انا اؤمن بطبيعة الموهبة ، الموهبة اولا وقبل كل شيء .

ـ هل هذا يعني ان الشعر لا يحتاج الى جهد دائم ؟

ـ طبعا . اذا كان العامل يحمل في يده شقوقا فلا بد لكل شاعر اصيل من ان يحمل شقوقا في قلبه .

ـ انت تعتبر من المجلين في الشعر الحديث ، ومن الشعراء الشباب المجددين ، فما هي مآخذك بالنسبة للشعر الكلاسيكي ؟

ـ الشعر اي شعر ، يجب ان ينبت من الارض التي انبتت شجرة الشعر . ان الحدائق المعلقة فوق الارض يمكن ان تعيش فترة ، وليس لها جذور في الارض ، ولكن اوراقها لن تلبث طويلا حتى تذبل . والشجرة يمكنها ان تترك الارض التي انجبتها في البداية وقت شبابها لانها تريد ان تمزق الارض لكي تكبر . ولكن ما ان تكبر وتخضوضر حتى تحن بحنينها الى الارض التي انبتتها . هذا ما قاله مایاكوفسكي « يجب ان نطرد بوشكين » . لقد كان بحاجة الى هذا الكلام لكي يشق طريقه . ولكن عندما اشتهر ، فهمت هذه الاوراق ان ثمنها اقل من ثمن الارض ، فعاد ليقدر بوشكين ودوستيوفسكي ، وكان مایاكوفسكي يومئذ من اكبر الشعراء . وانا احب مایاكوفسكي في بدايته ، واحبه في نهايته . احبه عندما شق الارض ، واحبه عندما عاد اليها . وانا اتمنى ان يكون لحياتي آخرة جميلة .

ـ لنعد الى السؤال الاول ، او لنحوله حسب تعبيرك ، ما هي المزايا التي تعتقد انك شققت بها الارض في الشكل والمضمون ؟

ـ لا ادري ، لا افهم . انا شاعر فقط . لا استطيع ان افرق بين الشكل او المضمون ، حين افول الشعر يختلط الامر لدي . اما اذا اردتم ان اكون الان ناقدا او محللا فانني افول ان الشكل هو وسيلة ، والمضمون هو الهدف . ويمكن لبعض المفاهيم السياسية ان تدخل الاذب . فاذا كانت الوسائل عاطلة او مشبوهة ، من الناحية المعنوية ، فان الهدف سيشوه بسبب الوسائل مهما كان هذا الهدف نبيلا . لنضرب مثلا : ملحمة عن الفيتنام تصاغ بطريقة تعليمية . ان الهدف نبيل ، ولكن الطريقة معرقة . فهو اذن يصيب ضررا للفيتنام بدلا من أن يخدمها ، فان الناس سوف يضجرون . مثل آخر : مآثر رواد الفضاء ، اولئك الذين كانوا يغامرون بحياتهم . لو احصينا عدد الفصائد السيئة التي قيلت فيهم ، لادركنا الى اي حد فقدت هذه المآثر رونقها . وانا اعتبر ان في تلك الطريقة ترخيصا للمعاني الكبيرة وابتذالا لها .

ـ والصراع بين القديم والجديد ؟

ـ انا لا اعتبر ان هناك معركة بين القديم والجديد ، وانا لا افهم هذا التحديد ، لان الفن الخالد يبقى دائما جديدا . القضية قضية موهبة وفن جيد او سيء ولا فرق عندي ان يكون الكاتب محدثا او قديما ، فانا مثلا حين اقرأ روب غرييه او نتالي ساروت لا اتأثر كما اتأثر عندما اقرأ دوستيوفسكي . وانا اريد الفن ان يهزني ، ان يهدمني ثم يبنيني . ولا فرق لدي في الزمن او الطريقة .

ـ سؤال خاص . هل ندمت على شيء كتبته في الماضي ؟

ـ في كثير من الاحيان ، وبشكل دائم . كان نيكراسوف محظوظا جدا . فعندما نشر كتابه ، اشترى جميع النسخ واحرقها ، كان العدد ضئيلا . اما نحن ، فماذا نفعل ، ونحن نطبع مئات الالوف من النسخ . ولو استطعت ، لاحرقت ثمانين بالمئة مما كتبت لاسباب فنية وبسبب تلك الافكار الايديولوجية الساذجة التي تبلغ حد السخافة التي تبدو لي اليوم . وما يبررها هو انها يومئذ لم تكن تبدو كذلك .

ـ هل تعتقد ان فن القاء الشعر سيصبح فنا بحد ذاته ؟

ـ معاذ الله .

ـ ما هو شعورك بينما كنت تؤدي خدمة الجيش ؟

ـ شعور من الاعتزاز . على أنني كنت أؤدي نوعا خاصا من الخدمة . فقد كنت احمل بالدبابة والقي قصائدي بين الجنود . ولقد اصبت بالدهشة لمستوى الضباط الشعري ، واكتشفت انهم اناس لا يحبون خوض الحروب ولا يمكن ان يطلقوا النار عن عمى وان كانوا لا يتاخرون في خوض الحرب .

ـ ما هي مشاريعك الادبية ؟

ـ انني انضم الى احد الفنانين الذي رد مرة قائلا : الاعمال الفنية يجب ان لا تقترن بكلمة مبتذلة ككلمة مشاريع . على انه لدي فكرة : ترك الشعر وكتابة القصة .

ـ الن تكون معصبية لكتاب القصة ؟

ـ من اجل ذلك سأكتب قصة .

ـ ما رأيك بباسترناك ؟

ـ لقد جرب باسترناك القصة بالرغم من ان احسن انتاجه هـو شعره. ولكني قرأت دكتور جيفاغو خمس مرات وكنت في كل مرة اكتشفها واحبها بالرغم من انني لم احبها من المرة الاولى . صحيح ان المفروض بالعمل الادبي الجيد ان يعجب من الوهلة الاولى ، ولكن القاريء يجب ان يكون صبورا . وانا لا استطيع ان اقول انها رواية جيدة اولا . ولكن هناك الاحساس بان كاتبها عبقري . هناك صفحات ضعيفة واخرى رائعـة . والقاريء يؤلف بينها .

ـ ما هو رأيك بسولجنتسين ؟

ـ الاحساس الاول هو الامتنان العميق لهذا المؤلف ، فهو يجعلني اشعر بالاعتزاز لكوني روسيا ، ثم الاحساس به ككاتب . وروايته « ايام ايفان ديسونوفيتشي » جيدة بصورة عامة .

ـ ماذا عن شولوخوف ؟

ـ انني معجب « بالدون الهادىء » . انها رواية عالمية ، بالرغم من ان تولستوي قال عنها انها رواية محلية . وكان يجب ان يعطى جائـزة نوبل من قبل ، عندما كان ينتج . اما اليوم فهي قد أعطيت لجثة حية ..

ـ الى اين يتجه الشعر الروسي الحديث ؟

ـ انه يبتعد عن طريق الصرخات لينفذ الى عمق نفس الشعب . ونحن قد شبعنا من هذه الصرخات واحمرت وجوهنا منها وحان الوقت ان نتعمق هذه الصرخات لنقرب من الصمت الفلسفي . صحيح انني شخصيا لا استطيع ان اعيش بدون الناس ومـن دون مشاركة همومهم ولكنني بحاجة الى الوحدة والى الانعزال لكي اعمق هذه المشاركة واعيشها فنيا . ان السمك حين يتعب ينزل قاع البحر ، فاما ان يستقر فيه ، واما ان يموت فيطفو على سطح الماء .

ـ هل زرت بلدا عربيا ؟

ـ لا ، ولكنني سمعت بعدائكم لاسرائيل . وبدا هـذا العداء بصورة واضحة في كلمة الدكتور سهيل ادريس التي القاها فـي المؤتمر . الا تعتقدون انكم بهذا العداء العنيف تتجاوزون الدولة في اسرائيل الـى الانسان هناك ؟

واخذ سهيل ادريس يتحدث الـى افتوشنكو بلهجة هادئـة فشرح له قضية العرب في فلسطين من الزاوية الانسانية البحت وذكره بان السوفيات حين وقفوا في وجه النازية والفاشستية لـم يكونـوا يستطيعون ان يميزوا الدولة من الشعب الذي كـان يعتنق النازية والفاشستية . واوضح له ان الغرب كانوا ومـا يزالون فـي تاريخهم الطويل خير مثال للمعاملة الانسانية تجاه جميع الاقليات التي عايشوها. ولكن الامر يختلف تماما حين تقوم دولة على الاغتصاب والظلم وطـرد المواطنين من ارضهم وسلوك سياسة تمييز عنصرية اصبحت الان معروفة في جميع انحاء العالم .

ثم دعونا افتوشنكو الى زيارة لبنان وزيـارة بعض معسكـرات اللاجئين الفلسطينيين كما سبق ان دعونا من قبل جان بـول سارتر . وصورنا له حقيقة المأساة التي يعيشها النازحون .

وقد عبر افتوشنكو بعد ذلك عن اسفه لعدم اطلاعه علـى تلـك الحقائق وقال انه يحترم رأينا وبات يفهم موقفنا ووعد بان يزور بيروت قريبـا .

واذا كان هذا يدل على شيء ، فهو يدل على مدى تقصيرنا في شرح قضايانا العادلة امام الرأي العام المثقف العالمي . ولا ينبغي ان نعـجز دائما هذا الوضع الى الدعاية الصهيونية وحدها بالغا مـا بلغت مـن التأثير .

عايدة مطرجي ادريس

الرّعب

حزين قلبي الظمآن يا صخر
وأعمق منه في الشجو الارانين التي انبعثت من الإعماق
ما تجدي الارانين ؟!
يظل الشوق يجرحها
يظل الشوق يذبحها
فلا تعطي سوى زهره ..
من الأعماق سوداء التلاوين
صدى في الريح مجروح التلاحين

***

وأنت غمست في نهر المداد الراعف الأسود
خراطيما تعب الترح ، أنت أبحت للظل الرمادي الذي أوقد
على قارعة الابعاد فانوسا من الظلماء ..
يعطي الليل، ما يحتاج من دفق المداد الراعف المسود.

***

وأنت كسرت آنيتي
هرقت الطيب منها قبل أن ينفد
أتحت لمن يبيع الخوف أن يلهو بما يدمي
بما يشقي ، بما يجهد ..
لبست ثياب ديانين قالوا : ينبع الكوثر
ويسقي بالرحيق الحلو من في وجده يسهر
وتحت الثوب جلد مفجع فيه من اللفح الجحيمي
تلاوين .. أتوعدنا وأنت الظل بالاقمار ؟
تمنحنا الرحيق وانت علقمنا الـذي يصمي ، يغـص حلوقنا
يا أيها الرعب الذي غطى مخالبه بقفاز من الفرو ..

أحمد حسن ابو عرقوب